الفصل الثامن

التّحقّق من الكذب

تنجح معظم الأكاذيب؛ لأنّ أحداً لا يتكفّل عناء مراجعة العمل لمعرفة كيفية اكتشافها. في العادة، هذا غير مهم. ولكن عندما تكون الأخطار مرتفعة؛ أي عندما يتضرّر المتلقّي بشدة إذا تعرض للتضليل، أو تعرض الكاذب للأذى الشديد إن اكتُشف واستفاد إذا حُكم عليه خطأ أنه صادق– يصبح القيام بذلك العمل أمراً جيّداً. إنّ مهمة التّحقّق من الكذب ليست سهلة ويمكن القيام بها بسرعة، بل يتعين أخذ كثير من الأسئلة بالحسبان لتقدير إمكانية وقوع الأخطاء. وإذا كانت كذلك، فما أنواع الأخطاء التي يجب توقعها؟ وكيف يمكن كشفها من القرائن السلوكية الخاصة؟ لا بدّ من توجيه الأسئلة المتعلقة بطبيعة الكذبة نفسها، ومعرفة خصائص كلّ من الكاذب والمُحقِّق، ولا يمكن أن يكون أيّ شخص متأكداً تماماً ما إذا كان الكاذب سيُكتشف أو ما إذا بُرِّئ الشخص الصادق. يقدم التحقق من الكذب تخميناً مطلعاً فقط. ولكن ينبغي أن يحدّ القيام بهذا التقدير من أخطاء تصديق الكاذب وتكذيب الصادق؛ فهو يجعل كلاً من الكاذب والمحقِّق مدركيْن مدى تعقيد التنبؤ بإمكان اكتشاف الكاذب على الأقلّ.

يتيح التحقق من الكذب للشخص المتشكك تقدير الفرصه في إثبات شكوكه أو نفيها، وأحياناً يكون جلّ ما يتعلمه هو عدم تمكنه من إيجاد ما عرفه أوثلّو، أو قد يعلم الأخطاء المحتملة، وما الذي يجب البحث عنه أو الاستماع إليه.

obeikandl.com

قد يكون التّحقّق من الكذب مفيداً للكاذب أيضاً؛ فقد يدرك بعض المتهمين أنّ الفرص جميعها تقف ضدهم فلا يشرعون بالكذب أو لا يستمرون بكذبتهم، وقد يتشجع آخرون بمدى سهولة الإفلات بالكذب، أو يتعلمون ما الذي يركزون جهودهم عليه لتجنب الوقوع بالأخطاء التي يُحتمل أن يقترفوها. في الفصل القادم، سأوضح لماذا تساعد المعلومات الواردة في هذا الفصل والفصول الأخرى مكتشف الكذب أكثر من مساعدة الكاذب.

ينبغي الإجابة عن ثمانية وثلاثين سؤالاً للتحقق من الكذب، وقد سبق ذكر معظمها في سياق تفسير المسائل الأخرى في الفصول السابقة، وقد جمعتها الآن في قائمة واحدة، وأضفتُ إليها أسئلة لم أجد سبباً لشرحها سابقاً. سأحلّل عدداً من الأكاذيب المختلفة، وسأستخدم القائمة لتوضيح أنّ بعض الأكاذيب سهلة وبعضها الآخر صعب. (تظهر القائمة كاملة بالأسئلة الثمانية والثلاثين في الجدول 4 في الملحق).

ينبغي أن تنتج الكذبة السهلة لدى الكاذب بعض الأخطاء. وعليه، تكون صعبة الكشف على المحقق. في حين، ينبغي أن تكون الكذبة الصعبة سهلة الكشف للمحقّق. إنّ الكذبة السهلة لا تتطلب الإخفاء، أو تزييف العواطف، وذلك لتوافر فرص كبيرة لممارسة الكذبة المحددة، وسيكون الكاذب متمكِّناً في الكذب، ولن يكون المحقق متشككاً. لقد وصفت مقالة صحفية بعنوان (كيف يتربّص صائدو الرؤوس بالمديرين التنفيذيين في غابة الشركة)[1] عدداً من الأكاذيب السهلة جدّاً.

يستطيع صائدو الرؤوس جلب المديرين التنفيذيين الذين يمكن استمالتهم من شركة للعمل مع شركة منافسة أخرى. ولمّا كانت الشركات لا تفضل فقدان الموظفين الموهوبين لمنافسيها، فإنّ صائدي الرؤوس لا يستطيعون أن يكونوا مباشرين في محاولاتهم سبر غور من يصطادون. قالت لنا سارة جونز، صائدة رؤوس مع شركة في نيويورك، كيف يمكنها الحصول على المعلومات التي تحتاج إليها من (العلامة التجارية) من خلال التعريف بنفسها على أنّها باحثة صناعية: «نحن نقوم بدراسة تتعلق بالتعليم والمسارات الوظيفية. فهل يمكنني توجيه بعض الأسئلة إليك؟ أنا لست مهتمة باسمك، بل بالإحصاءات عن مساراتك الوظيفية وتعليمك فقط، ثم أسأل الزميل عن كلّ شيء خاصّ به؛ مقدار النقود التي يحصل عليها، متزوج أم عزب، عمره، عدد أولاده... إلخ. يتلاعب صائدو الرؤوس بالأشخاص

للحصول على معلومات محـدّدة وبسرعة[2]». وصف صائد رؤوس آخر وظيفته قائلاً: عندما يسألني الآخرون في حفلة ما عن عملي أكذب عليهم قائلاً: «إنني أغش وأسرق كي أعيش[3]».

وتوضـح المقابلـة التي أجريتها مـع المريضة النفسية ماري التـي أوضحتُ حالتها في الفصل الأول مثالاً على كذبة صعبة جدّاً.

الطبيب: حسناً يا ماري، كيف تشعرين اليوم؟

ماري: بخير، وأتطلع لقضاء العطلة الأسبوعية، آه، مع عائلتي كما تعرف، فقد مرت، آه، خمسة أسابيع منذ حضرت إلى المستشفى.

الطبيب: لا مزيـد من مشاعر الاكتئاب يا ماري، ولا أفـكار للانتحار. هل أنت متأكدة من هذا؟

ماري: أنا في غاية الحرج من ذلك. لا أشعر... أؤكد لك أنني لا أشعر كذلك الآن. ما أريده هو الذهاب والبقاء في البيت مع زوجي فقط.

لقـد نجحت كلّ من ماري وسارة في كذبتيهمـا، ولم يُكتشفا، ولكن ربما أمكن اكتشاف ماري، وبجميع التفسيـرات كانت الفرص ضد ماري، وتفضل سارة من النواحي جميعها. أنَّ كذبـة ماري أكثـر صعوبة في جعل الآخريـن يصدقونها، وأنّ ماري أيضـاً كاذبة أقلّ مهارة، ولـدى الطبيب عدد من المزايا كمـا لو أنه مكتشف للكذب. أولاً، دعونا نتعرف الطرائق التي تختلف بها الأكاذيب نفسها، بصرف النظر تماماً عن خصائص الكاذبين ومكتشفي الكذب.

كان علـى ماري أن تكذب عن مشاعرها، فـي حين لم تضطر سارة لذلك. تخفي ماري الألـم الذي يحفّز خططها الانتحارية، وقد تتسرّب هذه المشاعر، أو قد يشير عبء إخفائها إلـى المشاعر الإيجابيـة التي تتظاهر بها. ليس على ماري الكذب عن مشاعرها فقط، ولكن علـى عكـس سارة، كان لديهـا مشاعر قوية حيال الكـذب في حدّ ذاته، وهـي مشاعر ينبغي لهـا إخفاؤها أيضـاً. ولأنّ كذبة سارة مشروعـة بصفتها جزءاً من سمـات وظيفتها، فهي لا تشعـر بالذنب تجاه كذبها هذا. بالمقابل، تنتج كذبة ماري غير المسموح بها شعوراً بالذنب؛ يُفترض أن تكون المريضـة صادقة مع الطبيب الذي يحاول مساعدتهـا، إضافة إلى علاقة

الاحتـرام الذي تكنّه إلـى طبيبها تشعر ماري بالخجـل أيضاً للكـذب والتخطيط للانتحار. **إنّ أصعـب الأكاذيـب هـي المتعلقة بالعواطف الصّادقة عند الكـذب، وكلّما كانت العواطف أقوى، وزاد عدد العواطف المختلفة التي يجب إخفاؤها، زادت صعوبة الكذبة.** لقد شرحت سبـب شعور ماري بالذنب والخجل، إضافة إلى الشعور بالألم. عندما ننتقل الآن من التفكير بالكذب، إلى تحليل الكاذبين، سنرى لماذا تشعر ماري بعاطفة رابعة لديها والتي يجب عليها أيضاً إخفاؤها.

تعـدّ ماري أقـل ممارسة ومهارة من سارة فـي الكذب، وهي لم تحـاول من قبل إخفاء الألـم وخطـط الانتحار، وليست لديها خبرة في الكذب عن أيّ شيء مع طبيبها النفسيّ، وإنّ افتقارهـا إلى الممارسـة يجعلها تخاف من افتضاح أمرها، وقد يتسرّب هذا الخوف بطبيعة الحـال، مضيفـاً عبئاً آخر إضافـة إلى عبء العواطـف التي يجب عليهـا إخفاؤها. ويجعلها مرضهـا النفسـي عرضة، بوجه خاص، للخوف والشعور بالذنـب والعار. وكذلك لا يرجح أن تكون ماري قادرةً على إخفاء هذه المشاعر.

لـم تتوقع ماري الأسئلة جميعها التي يُرجّح أن يوجّههـا الطبيب، وعليها تلفيق إجابات كاذبـة في حـال توجيه السؤال. ولكن وضع سـارة هو عكس ذلك تماماً. فهـي متمرّسة بهذا النـوع مـن الكذب، وقد مارسته مرّات عدّة، وهي واثقة من قدرتهـا عليه بناءً على نجاحاتها السابقـة، ولديهـا عبارات مختلقـة جيداً تدرّبت عليها. لـدى سارة أيضاً ميـزة القدرة على التمثيـل، مما مكنها من القيـام بدورها بمهارة في كثير من الأحيـان، لدرجة أنها تقتنع بها شخصيّاً.

أمّـا الطبيـب فيتمتع بثـلاث مزايا علـى المدير التنفيـذي بوصفه مكتشف كـذب. إنّ اجتماعـه هـذا مع ماري ليـس الاجتماع الأول، وتهيـئ له معرفته السابقة بهـا فرصة أفضل لتجنـب مخاطرة بروكاو؛ بسبـب عدم مراعاة الفروق الفردية. وفـي حين لا يتدرب الأطباء النفسيون جميعهم على كيفية اكتشاف علامات العاطفة المخفية فإنّ لدى طبيب ماري هذه المهارة.

وعلى عكس المدير التنفيذي، يكون الطبيب حذراً، وهو يقظ لاحتمال الخداع؛ فقد تعلّم أنّ المرضى الذين ينزعون للانتحار بعد قضائهم أسابيع عدّة في المستشفى قد يخفون مشاعرهم الحقيقية كي يتمكنوا من الخروج من المستشفى ومن ثمَّ الانتحار.

لقد كانت أخطاء ماري واضحة في حديثها، وصوتها، وحركات جسدها، والتعابير الصادرة عنها. وهي كاذبة غير حاذقة، وليست متحدثة سلسة، وتقدم قرائن على الخداع في خياراتها للكلمات وفي صوتها، عندها أخطاء في الكلام، وإسهاب في الحديث، وعدم توافق في العبارات، وتوقف في أثناء الحديث. إضافة إلى أنّ المشاعر السلبية القوية التي تشعر بها أنتجت الأخطاء في حديثها وحدّة صوتها، إضافة إلى وضوح قرائن عواطف الألم، والخوف، والذنب، والخجل، في الدلائل المتسربة، مثل هزة الكتف، وحركات التلاعب، وقلة الحركات التوضيحية، وتعابير الوجه الدقيقة التي تبين هذه العواطف الأربع. تسربت العواطف الأربع جميعها في عضلات الوجه الصادقة على الرغم من محاولات إخفائها. ولأنّ الطبيب يعرف ماري حقّ المعرفة، كان ينبغي أن يكون أكثر قدرة على تفسير حركات جسمها التوضيحية والمموِّهة التي قد يُساء تفسيرها؛ بسبب الفروق الفردية في أول لقاء. في الواقع لم يكن طبيب ماري قادراً على التقاط قرائن خداعها، على الرغم من افتراضي أنه لو تنبه إلى ما أوضحت، فسيكون هو ومعظم الآخرين قادرين على اكتشاف كذبتها.

أمّا سارة فوضعها لاقتراف الكذب مثاليّ؛ لا عواطف ينبغي إخفاؤها، لقد مارست هذه الكذبة بالتحديد، وأتيح لها وقت التدرّب عليها، وثقة سببها نجاحات سابقة، ومهارات طبيعية ومتطورة لتستغلها في الأداء، والتصريح بالكذب، وضحية لا تشك فيها مسؤولة عن الأخطاء في الحكم بسبب اللقاء الأول، وضحية غير موهوبة خصوصاً بوصفها حكماً على الآخرين. بالطبع، لم تتح لي الفرصة مع سارة على عكس ماري لدراسة فيلم مصور للبحث عن قرائن الخداع، فأنا أعتمد على ما تتناقله الصحف من تفسيرات فقط، ولم أستطع التّخمين من عدم قدرة أحد على إيجاد القرائن على خداعها، وقد كانت الخدعة بسيطة جدّاً، ولم تكن هناك أسباب لارتكاب الأخطاء.

والميزة الوحيدة الأخرى التي يمكن أن تملكها سارة هي المتلقِّي المتعاون بنشاط في الخدعة، الذي يحتاج إلى تضليل لأسباب خاصة به. وهذا ما لا تمتلكه سارة وماري. كانت

هـذه الميزة متوافرة لدى روث، الزوجة اللعوب في القصة التي نقلتها في الفصول السابقة، وكانـت كذبتهـا صعبة جداً، ومليئة بالأخطـاء، ولكن المتلقّي المستعـد للخدعة لم يكشفها. تذكّـر أنّ جيـري زوج روث سمعها تتحدث هاتفيّاً مع عشيقهـا. ولملاحظته نبرة مختلفة في صوتها، يسألها عن المتحدث في الطرف المقابل، ولأنه أُمسك بها على غِرَّة، تلفّق روث الرّدّ فـي أنّ الهاتـف من مدرسة الأحد. ولكن جيري واثق أنّ هذا الرّدّ لا ينسجم مع ما سمعه، ولا يصـرّ جيـري أكثر من ذلك، ويلمِّح أبدايك أنّ جيري فشل فـي اكتشاف خداع روث لأنّ لديه سببـاً لتجنّب مواجهة الخيانـة الزوجية: فجيري نفسه يخفي أيضـاً علاقة غرامية له، وكما اتضح فيما بعد في القصّة، فإنّ العلاقة كانت مع زوجة حبيب روث!

دعونـا نقارن كذبـة روث الصعبة جداً غيـر المُكتشفة، مع كذبة سهلة جـدّاً، والتي لم تُكتشف أيضاً ولكن لأسباب مختلفة جداً تأتي هذه الكذبة السهلة من تحليل حديث للتقنيات التي يستخدمها الفنانون المحتالون.

فـي (اللعـب المعكوس)... يواجه الفنان المحتالُ الضحيّةَ وهو يُضمر فكرة خفية، وينزع منه سلاحه عن طريـق توقع المواجهة الفعلية التي تستشعرها الضحيّـة. دخل جون هامراك، أحد الرجال الأكثر خداعاً في السنوات الأولى من هذا القرن في المجر، مع شريك يرتدي زِيّاً فنيّاً إلى مكتب عضو مجلس المدينة المحلـي، وأعلن هامراك أنهما حضرا من أجل صيانة الساعة المقرر إصلاحها، وبسبب القيمة النقدية الكبيرة للساعة، تردّد عضو المجلس المحلي في تسليمها.

وبـدلاً من مزيد في إتقان الـدور، تجاوب هامراك بلفت انتبـاه عضو المجلس المحلي إلى قيمة الساعة غير العادية، وذكر أنه لهذا السبب بالذات حضر شخصيّاً. وعليه، يحرص المحتالـون على توجيه انتباه ضحيتهم إلى القضية الأكثر حساسية. إنّهم يتقنون دورهم عن طريق التظاهر بالضرر كأنّ القضية خاصة بهم[4].

تتمثـل المسألة الأولى الواجب التفكير فيهـا بتقدير ما إذا كانت دلائل الخداع موجودة أم لا، ومـا إذا كانـت الكذبـة تنطوي على العواطـف الصّادقة في لحظة الكـذب أم لا، وكما شرحـت في الفصـل الثالث، وأوضحت فـي تحليل كذبـة المريضة النفسية مـاري، تنطوي أصعب الأكاذيب على العواطف الصّادقة في لحظة الكذب. لا تُعدّ العواطف كلّ شيء، ويجب توجيه أسئلة أخرى للقيام بتقدير إمكان إخفاء العواطف بنجاح. ولكن السؤال عن العواطف مكان جيد للبدء.

قـد يكون إخفاء العواطـف الهدف الرئيس للكذب كما هو الحـال مع ماري، ولكن ليس لـروث، حتـى عندما يكـون الأمر غير ذلـك؛ أي عندما يكون الكذب ليس عـن المشاعر، قد تشتـرك المشاعر في الكذب. هنـاك أسباب كثيرة وراء شعـور روث بالخوف من الانكشاف وذنـب الخداع؛ لأنهـا، وبوضوح، تخشـى العواقـب إذا اكتُشفت محاولتها لإخفـاء علاقتها. وليسـ الأمر أنّ روث لن تكون قادرة على الاستمرار في الحصول على المكافآت التي تقدمها علاقتها إذا فشلت كذبتها، بل إنها قد تتعرض للعقاب، وقد يتركها زوجها جيري إذا اكتشف خيانتهـا لـه، وإذا كان هناك طلاق، قد تسبب الشهادة عن الزنـا في حرمانها ماليّاً. (كُتبت روايـة أبدايك قبل عصر الطلاق من غير وجود خطـأ من الزوجين). حتى في الولايات التي تجيز الطلاق من غير خطأ، قد يؤثر الزنا سلباً في حضانة الأطفال، وإذا استمر الزواج فقد يتعرض للفشل على الأقل لبعض الوقت.

لا يطال العقاب كلّ كاذب يُفتضح أمره، فلا تتعرض سارة صائدة الرؤوس، ولا المريضة النفسيـة ماري للعقوبة إذا فشلت أكاذيبهما. في حين أنّ هامراك المحتال الشبيه بروث قد يُعاقب، وتجعله عوامل أخرى يشعر بقدر أقلّ من الخوف من الانكشاف.

هامـراك حاذق بهذا النوع مـن الكذب فقط، وهو يعلم أنّ لديـه المقوِّمات الشخصيّة التـي تساعده على الكذب. على الرغـم من أنّ روث نجحت في خداع زوجها، غير أنها ليست حاذقـة بما تتطلبـه الكذبة تماماً، وهو تغطية المكالمة الهاتفيـة التي سمعها زوجها، ولا هي واثقة بقدرتها على الكذب.

تُعـدّ معرفـة روث بإمكان تعرضهـا للعقاب إذا فشلـت كذبتها مصـدراً واحداً لخوفها مـن الانكشـاف؛ فهي تخشى العقاب مـن الكذب نفسـه، وإذا اكتشف جيـري أنّ روث كانت مستعـدة وقادرة على خداعه، فيمكن أن يكون انعدام ثقتـه فيها مصدراً للمتاعب بعيداً عن خيانتهـا له. يدّعي بعض الدّيّوثين أنّ الأمر الـذي لا يمكن غفرانه هو انعـدام الثقة، وليس الخيانة بحدّ ذاتها. مرة أخرى، لاحظ أنّ العقاب لا يطال الكاذبين جميعهم على فعل الكذب نفسـه، ويكون الأمر كذلك فقط عندما يكون للكاذب والضحيـة مستقبلٌ قد يتعرض للخطر بانعـدام الثقـة. أما إذا قُبض على سـارة صائدة الرؤوس فإنها تفقـد فقط إمكان الحصول على معلومات من هـذه (العلاقة) الخاصة، وسيُعاقب هامراك ليس لقيامه بالانتحال، ولكن

للسرقــة أو محاولة السرقة، حتى ماري المريضة النفسية لــن تتعرض للعقاب بتهمة الكذب نفسه، ويجعل اكتشاف كذبها طبيبها أكثر حذراً، ولا تكون الثقة بافتراض أنّ الشخص الآخر سيكون صادقاً مفترضة أو مطلوبة في كلّ علاقة دائمة، ولا حتى في كلّ زواج.

ينبغــي تضخيم تخــوّف روث من الانكشاف عن طريــق إدراكها أنّ جيــري يشكّ فيها. فضــلاً على أنّ ضحيــة هامراك عضو المجلــس المحليّ، يشكّ أيضاً فــي كلّ من يريد إزالة ساعتــه القيِّمة. ويكمــن جمال (اللعب المعكوس) فــي أنّ مخاطبة الجمهــور مباشرة، وجعل الشكّ الذي يحتفظ به المتلقِّي عاماً، يقلّل من ذلك الشك. تعتقد الضحية أنّ اللص لن يكون جريئــاً، وذلك لمجرد الاعتراف بمخاوف ضحيته، وقد يتسبــب ذلك المنطق أيضاً بإقصاء التسرب؛ لأنه لا يُصدّق أنّ الكاذب قد يقع بهذا الخطأ.

لاحــظ كلّ مــن دونالد دانيال وكاثرين هيربــغ في تحليلهما للخداع العسكــريّ أنّه كلّما كان التســرب أكبر، قلّ احتمال تصديق الضحية له؛ لأنه يبدو صعب التّصديق. (لقد تجاهل المخططون العسكريون التسريب في عدد من الحالات) ... بوصفه واضحاً جدّاً[5].

تتشــارك روث والمريضــة النفسيــة ماري القيــم مع ضحيتهــا، وقد يشعــران بالذنب لكذبهمــا، ولكن شعور روث أنّ كذبتها مسموح بها غير واضح، حتى الأشخاص الذين يُدانون بالزنا لا يوافقون بالضرورة على وجوب كشف الأزواج غير المخلصين عن الخيانة الزوجية. والأمــر مع حالة هامــراك أكثر يقيناً. ومثل سارة صائدة الرؤوس، لا يشعر هامراك بالذنب، فالكــذب جزءٌ ممــا يفعله لكسب قوته. ربما يكــون هامراك كاذباً بالفطــرة أيضاً، أو مختلّاً عقليّــاً؛ الأمــر الذي من شأنــه أنّ يقلّل أيضاً مــن فرصة الشعور بالذنب تجــاه الكذب، وبين أقران هامراك يكون الكذب على (المشاهير) فِعْلاً مرغوباً فيه.

توضح أكاذيب روث وهامراك النقطتين التاليتين: لا تتوقع روث الوقت الذي تحتاج فيه إلى الكذب؛ لذا، فإنّها لم تلفِّق عبارة وتتدرب عليها. ينبغي أن يضخِّم الخوف من الانكشاف لــدى روث عند بدء الكذبــة؛ لأنها تفتقر إلى إجابات معدّة من قبــل، حتى لو كان من المقرّر أن يُمســك بهامراك في مثــل هذا المأزِق، وعادة لا ينكشف الــكاذب المحترف في كثير من الأحيــان؛ لأنّ لديــه موهبــة الارتجــال، وهي موهبة لا تمتلكهــا روث. ولكــن روث لديها ميزة

كبيـرة تتفوّق فيها على هامراك، الميـزة المستخدمة في تقديم هذا المثال أنّ لديها ضحية مستعـدة، ولهـا أسبابها الخاصة التي لا ترغب معها أن يُمسك بهـا. أحياناً، قد لا تكون هذه الضحيـة مدركة لتورطهـا في الحفاظ على الخـداع. يترك أبدايك القـارئ غير متأكد عما إذا كان جيـري يـدرك تواطأه، وما إذا أدركت روث أنّ هذا مـا يحدث فعلاً. هناك طريقتان تجعـلان من خلالها الضحايا المستعدة مهمة الكاذب أسهـل. يكون الكاذبون أقلّ خوفاً من أن يُمسك بهم إذا عرفوا أنّ ضحاياهم لا يرون أخطاءهم، ويشعر الكاذبون بالذنب أقلّ تجاه خداع هؤلاء الضحايا؛ لأنهم قد يعتقدون أنهم يفعلون ما تريده ضحاياهم.

حتـى الآن، حلّلنا أربع أكاذيب، وحدّدنا سبب وجود قرائن على الخداع في حالتي ماري وروث، ولماذا لا يجب أن تكون هناك قرائن على الخداع في أكاذيب سارة و هامراك. دعونا الآن ندرس قضيـة حُكم فيها على الشخص الصادق بالكـذب؛ لنعرف كيف يمكن أن يسهم التحقق من الكذب في منع مثل هذا الحكم الجائر. أُدين جيرالد أندرسون باغتصاب نانسي جونسـون، زوجـة جـاره، وقَتْلِها. عند منتصف الليـل، عاد زوج نانسي إلـى البيت من عمله، فوجدهـا جثـةً هامدة. ركض إلى بيت عائلـة أندرسون، وأبلغهم أنّ زوجتـه ميتة وأنه لا يجد ابنه، وطلب إلى السيد أندرسون إبلاغ الشرطة.

جعلـت حـوادث عـدّة أندرسون مشتبهاً بـه. ففي اليـوم التالي لجريمـة القتل بقي في منزلـه، وشرب حتـى الثمالة في حانة قريبة مـن البيت، وتحدث عن عمليـة القتل. وعندما أحضـروه إلـى البيت ثملاً سُمع ينتحب ويقـول لزوجته: لم أكن أريد فعـل ذلك، ولكني كنت مضطـراً، ولـم يُصدّق ادعاؤه في وقـت لاحق أنه كان يتحدث عن الخمـرة لا القتل. وعندما سألتـه الشرطة عن بقعة علـى فرش سيارته، ادعى أندرسون أنّهـا كانت موجودة قبل شراء السيارة. في وقت لاحق، خلال التحقيق، اعترف أنّه كذب؛ لشعوره بالخجل من الاعتراف أنّه تجـادل مع زوجته جدالاً حادّاً جعله يصفعها، وهذا ما تسبب في نزف أنفها. قال المحققون لأندرسـون مـراراً: إنّ هـذا الحادث يثبت أنّه شخـص عنيف وقد يقتل، وهـو كاذب إنْ أنكر ذلـك. في أثناء الاستجواب، اعترف أندرسـون أنّه عندما كان في سنّ الثانية عشرة اشترك في جريمة جنسيّة عابرة لم تؤثر في الفتاة ولم تتكرر بتاتاً. ولكن تبيّن لاحقاً أنّه لم يكن في الثانية عشرة بل في الخامسة عشرة في ذلك الوقت.

وأصـرّ المحققـون أنّ هـذا دليل آخـر يثبت أنه كان كاذبـاً، ودليل على أنـه كان يعاني مشكلـة جنسية. وعليه، قد يكون هو الشخص الذي اغتصب نانسي ومن ثمَّ قتلها. حضر جو تاونسنـد؛ مشغّل محترف لجهاز الكشف عن الكذب، وعرّفه المحققون أنّه لم يخطئ مطلقاً في كشف الكاذبين.

أجرى تاونسند مجموعتين من الاختبارات على أندرسون، وحصل على بعض القراءات المحيِّـرة والمتناقضة، وعند استجوابه عن جريمة القتـل نفسها، أظهر أندرسون (نبضات) علـى الأشرطـة كانت مؤشراً على الخداع فـي إنكار الذنب. ولكن عنـد استجوابه عن سلاح الجريمـة، وكيفيـة التّخلّص منـه، والمكان الـذي أخفاه فيه، بيّـن شريط الجهـاز أنّه كان (بريئـاً). وللتبسيـط، أشار أندرسون إلى الذّنـب حول جريمة قتل نانسـي والبراءة بالأسئلة المرتبطـة بالسـلاح الذي طُعنت به القتيلة وقُطِّع جسمها به. وعند سؤاله عن كيفية حصوله على السكين، ونوعها، وكيفية التّخلّص منها، قال أندرسون: «لا أعرف»، فلم ينبض الشريط . . . .كـرّر تاونسنـد السؤال عن سلاح الجريمـة ثلاث مرات، وحصل علـى النتائج نفسها. وعندما انتهى جو تاونسند من الاختبار، قال لأندرسون: إنّه فشل في الاختبار[6].

تناسـب حكـم مشغّل جهاز الكشف عن الكـذب مع اعتقاد المحققين فـي أنّهم قبضوا علـى المجـرم، واستجوبوا أندرسون ستة أيـام. كشفت شرائط تسجيـل التحقيق مدى تعب أندرسون، وكيف اعترف أخيراً بجريمة لم يرتكبها. في النهاية تقريباً، ادعى البراءة، واحتج أنّـه لا يمكـن أن يكون قد فعل ذلك؛ لأنه لا يتذكر أنـه قتل أو اغتصب نانسي. فردّ المحققون بإخبـاره أنّ القاتل قد لا يتذكـر شيئاً. ولا يثبت الفشل بتذكر هذا الفعل، على حدّ قولهم، أنه لـم يرتكـب الجرم. وقّع أندرسون علـى الاعتراف بعد أن ذكر له المحققـون أنّ زوجته قالت إنهـا تعلم بقتله نانسي. فـي وقت لاحق، نفت زوجته ذلك التصريح بتاتـاً. وبعد بضعة أيام، تنكّر أندرسون لاعترافه. ولكن بعد سبعة أشهر اعترف القاتل الحقيقي، المتهم بجريمة قتل واغتصاب أخرى بقتل نانسي جونسون.

يشيـر التّحليـل إلى أنّ ردّ فعـل أندرسون العاطفيّ علـى أسئلة جريمة القتـل في أثناء اختبار جهاز فحص الكذب ربما يكون نتيجة كونه يكذب عندما قال إنه لم يرتكب الجريمة. تذكـر أنّ اختبـار الجهاز لا يكتشف الكـذب، بل يكتشف الانفعال العاطفـي فقط، وقضية ما

إذا كان أندرسون منفعلاً عاطفيّاً عندما استُجوب بشأن الجريمة تكون فقط بقتله لنانسي. هل هناك أسباب أخرى لانفعال أندرسون العاطفيّ بشأن الجريمة حتى لو لم يرتكبها؟ وإذا كانت هناك أسباب أخرى فسيثبت أنّ الجهاز غير دقيق.

إنّ الأخطار مرتفعة والعقاب شديد – بحيث إنّ معظم* المشتبه بهم المذنبين بجرائم مماثلة سيدبّ في قلوبهم الرعب، ولكن بعض الأبرياء فقط يخافون. يحاول مشغلو الجهاز التقليل من خوف البريء من ألّا يُصدَّق، وتعظيم خوف الشخص المذنب من أن يُكتشف من خلال إبلاغ المشتبه به أنّ الجهاز لا يخطئ أبداً، ويكمن أحد أسباب خوف أندرسون من عدم تصديقه في طبيعة الاستجواب الذي سبق الاختبار. يميّز خبراء الشرطة بين المقابلات التي تُجرى للحصول على المعلومات، والاستجوابات التي تفترض الذنب، وتُجرى بطريقة اتهامية ومحاولة الإكراه على الاعتراف. يستخدم المحققون عادة كما فعلوا مع أندرسون، قوة قناعاتهم الخاصة بذنب المشتبه به، الذي يعترفون به صراحة لإجبار المشتبه به على التخلي عن مطالبته بالبراءة. في حين قد يخيف هذا المذنب ليعترف، فإنّ ذلك يكون على حساب إخافة المشتبه به البريء الذي يدرك أنّ مستجوبيه لا يملكون ذهناً منفتحاً بشأن براءته، وبعد أربع وعشرين ساعة من الاستجواب من غير توقف، تقدم أندرسون لاختبار الجهاز.

قد تكون انفعالات أندرسون العاطفية بشأن أسئلة المحققين عن الجريمة قد نتجت بسبب شعوره بالخزي والذنب وليس من خوفه من عدم تصديقه. فعلى الرغم من كونه بريئاً، كان أندرسون خجلاً من ضربه زوجته، وارتكابه مخالفة جنسية في سن المراهقة. عرف المحققون أنّه كان يشعر بالخزي؛ لضربه زوجته وارتكابه المخالفة الجنسية بسن المراهقة، وشعر كذلك بذنب الخداع؛ لمحاولته إخفاء هذين الحدثين. استغلّ المحققون باستمرار هذين الحدثين لإقناع أندرسون أنّ شخصيته من النوع الذي يقتل ويغتصب، ولكن ربما يكون هذا قد ضخّم مشاعره بالخزي والذنب، وربط تلك المشاعر بالجريمة التي اتُّهم بارتكابها.

* أعتقد شخصيّاً أن معظم المشتبه بهم المذنبين يخافون؛ لأن ليس كل من يقتل يخاف الانكشاف اكتشافهم، لا المحترف، ولا حتى المريض النفسي.

يفسّـر التّحقّـق من الكـذب سبب كون علامات الخـوف، أو الخـزي، أو الذنب، مبهمة بوصفهـا قرائـن على الخـداع، سواء في تعابيـر أندرسون كانـت، أو إيماءاتـه، أو صوته، أو حديثـه، أو في نشاط الجهـاز العصبي اللاإرادي، كما يقيسها الجهاز. وكانت هذه العواطف عرضة لتطفو على السطح إذا كان أندرسون بريئاً وكما لو كان قاتلاً أيضاً. والحادثة الأخرى التـي لم يعلم المحققون بشأنها، والتـي جعلت معرفتهم لها مستحيلة من انفعالات أندرسون العاطفيـة فيما إذا كان كاذباً أم لا، بعد خروج أندرسون من السجن، سأله الصحفي جيمس فيـلان الذي ساعدت قصته أندرسون على نيل حريته عن الأمر الذي جعله يفشل في اختبار الكشف عن الكذب، فكشف أندرسون عن مصدر آخر لانفعاله العاطفي عن الجريمة التي لم يرتكبها. في ليلة مقتل نانسي، وعندما ذهب أندرسون إلى منزل جاره، نظر إلى جسد نانسي العـاري مرات عدّة. وشعر أنّ هـذا شيء فضيع للقيام به. ففي غفلـة ارتكب جريمة مختلفة عـن جريمة القتل، جريمة جعلته يشعر ويسجل مشاعر الخزي والذنب. فكذب، ليخفي فعلته المعيبـة عن المحققين، ومشغل جهاز كشف الكذب، وبالطبـع شعر بالذنب حيال كذبه على هؤلاء الأشخاص.

ارتكـب المحققـون مع أندرسون خطأ أوثلّـو. ومثل أوثلّو، أدركـوا أنّ المشتبه به منفعل عاطفيّـاً، وكان خطؤهـم فـي تحديد سبـب تلك العاطفة التـي بدت عليه، وفـي عدم إدراك أنّ العواطـف المحـدّدة بصورة صحيحـة يمكن الشعور بها، سواء المشتبـه به مذنباً كان أم بريئـاً. تماماً مثـل شعور ديزديمونة اليائـس الذي لم يكن بسبب خسارتهـا حبيبها، لم يكن خـزي أندرسون، وذنبه، وخوفه، مرتبطـاً بجريمة القتل، ولكن بسبب أفعـال أخرى مَشينة. ومثلمـا كان أوثلّـو، أصبح المحققون ضحايا أفكارهم المسبقـة عن المشتبه به. كما لم يكن باستطاعتهم تحمّل عدم اليقين بشأن معرفة ما إذا كان المشتبه به كاذباً أم صادقاً.

امتلـك المحققـون معلومـات وتفاصيل عـن سلاح الجريمـة، وهي المعلومـات التي لا يعرفها إلا الشخص المذنب، ولن تكون معلومة لدى الشخص البريء. يجب أن توحي حقيقة أنّ أندرسون لم يجب عن أداة الجريمة؛ السكين في أثناء خضوعه للاختبار للفاحص أنه قد يكـون بريئـاً، وبدلاً من تكرار الاختبار ثلاث مرات، كان ينبغـي للفاحص بناء اختبار معرفة المذنب باستخدام معلومات عن الجريمة لا يعلمها إلا الجاني.

يعـدّ كلّ من هامـراك اللصـ وأندرسون المتهـم بالقتـل، تجسيداً لنوعـي الخطأ في المحاولات الدّؤوبة للقبض على المجرمين الذين يكذبون. في الاستجواب، وفي أثناء اختبار المِكشـاف، قد يبدو هامراك غيـر منفعل عاطفيّاً، ويبدو بريئاً تماماً مـن ارتكاب أيّ جُرْم. لقـد أوضح التحقق من الكذب سبب ندرة ارتكاب الخبير المحترف، أو الكذاب بالفطرة، أو المضطرب عقليّاً، الأخطاء عندما يكذبون. يُعدّ هامراك مثل الشخص الذي يصدّق كذبته. في حين، يمثّل أندرسون الأمر معكوساً. لقد كان بريئاً، ولكن بسبب تظافر القرائن الموجبة لإدانته ظلماً، حُكم عليه بالذنب، وهذا خطأ تكذيب الحقيقة. ليس غرضي من دراسة هاتين الحالتين رفض استعمال المِكشاف، أو اللجوء إلى القرائن التعبيرية على الخداع عند فحص المشتبه بهم.

وحتى لو رغب الشخص بذلك، فلا توجد طريقة لمنع الأشخاص من استخدام القرائن السلوكيـة على الخـداع. يعتمد انطباع كلّ شخصـ عن الآخرين، جزئيّـاً، على سلوك الآخر التعبيري. ينقل هذا السلوك الانطباعات عما هو أكثر من الصدق بكثير. إنّ السلوك التعبيري مصـدر رئيسـ للانطباعات عما إذا كان أحدهم ودوداً، أو عصبيّـاً، أو مسيطراً ، أو جذاباً، أو ذكيّـاً، أو مهتمّاً، أو متفهِّمـاً لما يقوله الآخر ...إلخ. تظهر هذه الانطباعات من غير قصد مـن غير أن يعي الشخص القرائن السلوكية التي يظهرها. لقد شرحت في الفصل السادس لمـاذا أرى أنّ الأخطـاء أقلّ عرضة للحدوث إذا فُسِّرت الدّلائـل على وجه صحيح، فإذا كان أحدهـم مدركاً لمصدر انطباعات الآخـر، وإذا عرف المتلقّي القواعد التي يتبعها الآخر في سلوكاتـه، يصبح احتمال الحكـم الصائب أكبر. إنّ أحكام أحدهـم أكثر إثارة للتحدي، من قبـل زملائه، ومن قبل الشخصـ الذي يحكم عليه، ومن خلال التعلـم بالتجربة ومعرفة أيّ الأحـكام تكون صحيحة وأيّها خطـأ. إنّ معظم تدريبات الشرطة لا تركّز على قرائن السلوك علـى الخداع. وافترض أنّ المحقق لا يعرف عادة الأسس الصريحة لحدسه أنّ هذا المشتبه به مذنب وذاك بريء. وفي حين تؤكد التدريبات الحالية لبعض فاحصي الجهاز على أهمية القرائـن غير اللفظية على الخـداع، فإنّ معلوماتهم عن نوع القرائـن السلوكية على الخداع غير دقيقة، ولا أساس لها، وأنّ الاهتمام بما إذا كانت هذه القرائن عديمة الفائدة أو مضلّلة قليل جدّاً.

ليس من الممكن الاستغناء عن استخدام القرائن السلوكية للخداع في الاستجوابات الجنائية، ولا أعتقد أنّ ذلك يخدم العدالة لو كان الأمر كذلك. وفي الخدع الخطيرة جدّاً، عندما قد يُسجن الشخص الصادق ظلماً، ويُعدم على جريمة لم يقترفها، أو احتمال إفلات القاتل الكاذب من الإدانة، لا بدّ من بذل المحاولات القانونية جميعها للوصول إلى الحقيقة.

بدلاً من ذلك، فإنّ حجتي هي أن تكون عملية تفسير مثل هذه القرائن أكثر وضوحاً وأكثر حذراً. لقد أكدت احتمال ارتكاب الأخطاء، وكيف يمكن أن يقدِّر مكتشفُ الكذب عن طريق دراسة كلّ سؤال في قائمة التحقق من الكذب (الجدول 4 في الملحق) الفرصَ لاكتشاف الكذب أو معرفة الحقيقة، وأعتقد أنّ التدريب على كيفية اكتشاف قرائن الخداع، ومعرفة الأخطار والاحتياطات، والاشتراك في التحقق من الكذب قد تجعل المحققين أكثر دقة، وتحدُّ من أخطاء تكذيب الصّدق وتصديق الكذب. ولكن هذا يتطلب بحثاً ميدانيّاً يدرس المحققين في الشرطة والمشتبه بهم الجنائيين لمعرفة ما إنْ كنت محقّاً. لقد بدأ هذا العمل، ويبدو أنّ النتائج واعدة، ولكن– مع الأسف – لم يتسنّ لي إكماله[8].

عندما يلتقي زعماء دول على خلاف بسبب أزمة دوليّة، يمكن أن يكون الخداع قاتلاً أكثر مما هو عليه في عمل الشرطة، ويكون كشفه أكثر خطورة وصعوبة، إضافة إلى أنّ أخطار الحكم غير الصحيح (تصديق الكاذب وتكذيب الصادق) أكبر من معظم الخدع الجنائية.

كتب عدد قليل من علماء السياسة عن أهمية الكذب والكشف عن الخداع في الاجتماعات الخاصة بين رؤساء الدولة أو كبار المسؤولين. يقول الكسندر جروث: «إنّ مهمة تخمين التوجيهات والنّيّات والصدق لدى الجانب الآخر حاسمة في أيّ تقدير سياسيّ[9]». قد لا يرغب الزعيم الوطني في اكتساب سمعة كاذب صفيق الوجه، ولكن لهذه السمعة ما يسوّغها في العلاقات الدولية. يقول روبرت جيرفيز:....عندما يمكن للخداع الناجح تغيير علاقات القوة الأساسية في النظام الدولي؛ لأنّ استخدام الكذب قد يساعد الدولة على تبوّء مركز عالميّ مسيطر. حينها، لن يكون الكذب عاراً[10].

يبدو أن هنري كيسنجر يختلف مع هذا، مؤكداً أنّ الكذب والخديعة ممارسات غير حكيمة، قائلاً: «الرومانسيون فقط هم من يعتقدون أنهم يمكن أن يسودوا في المفاوضات

بالخديعــة... إنّ الخديعة ليست سلوكاً حكيماً بل طريقة كارثيــة لممثّل الدولة(دبلوماسي)، ولمّا كان على الشخص أن يتعامل مع شخص آخر بعينه مرة بعد أخرى، فإنه يستطيع الإفلات مــن العقاب مرة على أفضــل تقدير، ولكن لن يدوم هذا طويلاً؛ فثمــن الإفلات سيكون قطع العلاقــة القائمة[11]» .ربما يلجــأ ممثّل الدّولة(الدبلوماسي) إلى الخــداع بعد انتهاء مسيرته الوظيفيــة، وذلك ليس في الوسائل الممكنة جميعها بالنسبة إلى كيسنجر. في الخلاصة، إنّ تفسير كيسنجر لجهــود الدبلوماسية الخاصة حافل بالأمثلة التي تبين مشاركته فيما أسميه أكاذيــب الإخفاء ونصف الإخفــاء، إضافة إلى كثير من الحالات التي تساءل فيها ما إذا كان نظراؤه مشتركين في أكاذيب الإخفاء أو التزييف.

يصــوغ ستاليــن الأمر بصدق، قائلاً: «يجــب ألّا تكون كلمات ممثــل الدّولة مرتبطة مع أفعالــه. وبخلاف ذلك، أيّ نوع مــن الدبلوماسية تلك؟.... فالكلمــات البرّاقة تخفي وراءها أفعالاً معيبة، والدبلوماسية الصادقة ليست أكثر من الماء الجاف أو خشب الحديد»[12] .من الواضح، أنّ هذا الرّأي متطرّف جدّاً؛ إذ يتحدث ممثلو الدّولة أحياناً بصدق، ولكن بالتأكيد لا يكون ذلك دائماً، وعند صدقهم النادر يضرون كثيراً بمصالح أمتهم. عندما لا يكون هناك شــكّ فــي أنّ سياسة واحدة فقط يمكنها تعزيز مصالح الأمــة، تعرف الأمم ما عليها توقعه، ولا يكون الكذب موضوعاً، وربما لن يُجرّب؛ لأنه سيكون بائن التّزوير. وفي كثير من الأحيان، تكــون الأمــور غامضة؛ تصدق إحدى الأمم أنّ الأخرى تعتقــد أنّها من الممكن أن تكسب من قيامها بالأعمال السرية بالغش أو الادعاءات المضللة حتى لو اكتشفت أفعالها غير الشريفة لاحقــاً. عندهــا، يكون تقييم المصالــح الوطنية غير كافٍ وكذلك كلمــات الأمة غير الواثقة أو أفعالهــا العامــة. وتدّعي الأمة المشتبــه فيها بالخداع بالصدق كما تفعــل الأمة الصادقة بالفعــل. يقــول جيرفيز: سواء كان الروس يغشّون [فيما يتعلق بخطــر التجارب النووية] أم لا فإنهم سوف يحاولون خلق انطباع الصدق، وسوف يجيب الرجل الصادق والكاذب بالإيجاب إذا سُئلوا عما إذا كانوا يقولون الصدق[13]».

إذن، لا عجــب أن تسعى الحكومات إلــى طرق لكشف الكذب لدى خصومها. قد يحدث الخــداع الدوليّ في عدد من المجالات المختلفــة لخدمة أهداف وطنية مختلفة تماماً، وأحد المجــالات التــي سبق ذكرها هي عند التقــاء الزعماء أو المسؤولين رفيعــي المستوى الذين

يمثلون الزعيم في محاولة لحلّ أزمة دولية. حينها قد يرغب كلّ جانب في خداع الآخر، وتقديم مواقف لا يدرك منها أنها نهائية، وأن يكون لدى الآخر نيّات صادقة غير مدركة. في بعض الأوقات، سوف يرغب كلّ جانب في التأكد من أنّ العدو يدرك هذه التهديدات بدقة، وأنها ليست خدعاً، وأنّها ستُنفَّذ على أرض الواقع.

إنّ المهارة في الكذب أو اكتشافه مهمان في إخفاء أو كشف الهجوم المفاجئ، لقد وصف العالِم السياسيّ مايكل هاندل مثالاً حديثاً: بحلول الثاني من يونيو (1967)، أصبح واضحاً لدى الحكومة الإسرائيلية أنّ الحرب لا يمكن تجنّبها، والمشكلة تكمن في كيفية شنّ هجوم مفاجئ ناجح تماماً، في حين أنّ كلاً من الجانبين مستعدّ تماماً. وبصفتها جزءاً من خطة خداع لإخفاء النّيّات الإسرائيلية في شنّ الحرب، أبلغ دايان وزير الدفاع الإسرائيليّ صحفيّاً بريطانيّاً بتاريخ الثاني من حزيران أنّ الوقت مبكر جدّاً ومتأخر جدّاً لإسرائيل للبدء بالحرب، وكرّر هذه العبارة في مؤتمر صحفي في الثالث من يونيو[14]». لم تكن هذه الوسيلة الوحيدة التي استخدمتها إسرائيل لخداع أعدائها، لكنّ مهارة دايان في الكذب مرتبطة في نجاحهم في تحقيق المفاجأة التامة بالهجوم في الخامس من حزيران.

ومع ذلك، فالاستخدام الآخر للخداع هو بتضليل الخصم بشأن مقدرة المخادع العسكرية. يقدم تحليل بارتون والي لإعادة تسليح ألمانيا سرّيّاً من 1939 – 1919 أمثلة كثيرة على مدى مهارة الألمان في القيام بذلك.

....(1) في شهر أغسطس من عام 1938، عندما كانت الأزمة التشيكوسلوفاكية تتصاعد تحت ضغط هتلر (مارشال الجو الألماني)، دعا هيرمان غورينغ القائد العام للقوات الجوية الفرنسية إلى جولة تفقدية للقوات الجوية الألمانية.

وافق الجنرال جوزيف فلمان رئيس هيئة الأركان الجوية العامة على الفور...، واصطحب الجنرال الألماني أرنست أوديت الجنرال فيلمان بطائرته الخاصة. عندما حلّقت طائرة الجنرال أوديت بسرعة قريبة من التوقف، وهي اللحظة التي خطط لها بعناية، تكون الفائدة من وصول الزوار قد تحققت؛ فجأة، ظهرت هينكل هي – 100 بسرعة خاطفة وبكامل قوتها. حطت الطائرتان وأخذ الألمان زوّارهم الفرنسيين المشدوهين لإكمال التفتيش.

سأل ميلخ باستهتار عفويّ: قل لي يا أوديت متى سنصل إلى الإنتاج الشامل؟

أجـاب أوديت على الفور: آه، إنّ خطّ الانتـاج الثاني جاهز، وسوف يكون الثالث جاهزاً في غضون أسبوعين.

بدا فيلمان مكتئباً، وقال لميلخ منفعلاً: لقد انهزمنا.

عـاد الوفد الفرنسي الجوي المفاوض إلى باريس بانطبـاع انهزاميّ في أنّ **النازيين** لا يمكن التغلب عليهم[15].

كانـت طائرة هي – 100 التي ضُخِّمت سرعتها بهذه الخدعة واحدة من ثلاث طائرات صُنِّعـت، وأصبـح هذا النوع من الخـداع والتظاهر بالقوة الجوية التـي لا يمكن التغلب عليها عنصراً رئيساً فـي مفاوضات هتلر الدبلوماسية، والتي أدت إلى سلسلة انتصاراته الباهرة، وبنيت سياسة الاسترضاء جزئيّاً على الخوف من السلاح الجوي الألماني[16].

فـي حيـن، لا تتطلب الخدع الدوليـة تواصلاً شخصيّـاً مباشراً بين الـكاذب وضحيته (يمكن تحقيق ذلك بالتمويه والبلاغات المزيفة وغيرها)، توضح هذه الأمثلة أنّ هناك عدداً من المناسبات التي يلتقي بها الكاذب وجهاً لوجه مع خصمه. ولا يمكن استخدام المِكشاف أو أيّ جهـاز آخـر يتطلـب من الخصم التعـاون في قياس صدقه؛ لذا، تحـول الاهتمام في السنـوات العشر الماضية إلى إمكان استخدام الدراسات العلمية للقرائن السلوكية للخداع. لقـد أوضحت في المقدمة أننـي عندما التقيت مع مسؤولي حكومتنا ومسؤولين من حكومات أخـرى، لم يبـد أن تحذيراتي عن الأخطاء كانت مقنعة لأيّ منهـم. وعليه، فإنّ أحد دوافعي فـي تدوين هذا الكتـاب هو عرض قضية الحذر مرة أخرى بمزيد مـن الرعاية والاستكمال، ولجعلهـا متوافرة لأكثـر من المسؤولين القليليـن الذين تشاورت معهم. وكمـا هو الحال مع الخـدع الجنائيـة، فإنّ الخيارات ليست سهلة. قد تساعـد القرائن السلوكية على الخداع في تحديـد ما إذا كان زعيم ما أو متحدث وطني آخـر يكذب، والمشكلة هي معرفة متى سيكون ذلـك ممكنـا ومتى لا يكـون، ومتى يمكن تضليـل القـادة بتقييماتهم الخاصـة، أو خبراتهم لقرائن الخداع.

دعونـا نعود إلى المثال الـذي استخدمته في الصفحة الأولى من هـذا الكتاب، عندما التقى تشامبرلين وهتلر لأول مرة في بيرشتسغادن في 15 أيلول 1938 قبل 18 يوماً من مؤتمر ميونيـخ،* سعـى هتلر لإقناع تشامبرلين أنـه لم يخطط للحرب ضد أوروبـا، وأنه يتمنى حلّ مشكلة الألمان السوديت في تشيكوسلوفاكيا، ولو وافقت بريطانيا على خطته التي تنص على عقد استفتاء في مناطق تشيكوسلوفاكيا التي تقطنها غالبية سكان من السوديت الألمان، ولو صـوت الناس لها، لضُمّت هذه المناطق لألمانيـا. عندئذٍ، لن يسعى هتلر إلى الحرب، ولكنّه عقد النّيّة على الحرب سرّاً؛ لقد حرّك جيشه لمهاجمة تشيكوسلوفاكيا في الأول من تشرين الأول، ولـم تتوقف خططـه للغزو هناك. تذكر العبارة التي استشهـدت بها سابقاً من رسالة تشامبرليـن إلى أخته بعد لقائه الأول مع هتلر: «هتلر رجـل؛ إذا وعد أوفى، ويمكن الاعتماد عليـه[17]»، وفي ردّه على انتقاد حزب العمـال المعارض، وصف تشامبرلين هتلر «أنه مخلوق استثنائي للغاية، ورجل سيكون أفضل من كلمته[18]».

التقـى تشامبرليـن وهتلر للمرة الثانية بعد أسبوع، فـي جودزبيرغ. فقدم هتلر مطالب جديـدة، وهي أنّ على القوات الألمانية احتلال المناطق التي يقطنها الألمان السوديت حالاً، وقـد ينعقد الاستفتاء لاحقاً، وليـس قبل الاحتلال الألماني العسكـري، وكانت المناطق التي ادعـى أنّ الألمان السوديت يقطنونها أكبر مما ذكر سابقاً. بعد ذلك، قال تشامبرلين لإقناع وزارتـه بقبـول هذه المطالـب: «من أجل فهـم أفعـال الأشخاص كان من الضـروري تقدير دوافعهـم ومعرفة كيف تعمل عقولهم... كان لدى الهرّ هتلر عقلاً ضيقاً، وكان متحيزاً بعنف لبعض الموضوعات، ولكنـه لا يخدع شخصاً يحترمه ويتفاوض معه، ولقد كان واثقاً أنّ الهرّ هتلـر شعر ببعض الاحترام لـه. فعندما يعلن الهرّ هتلر عن رغبته في القيام بعمل ما فسوف يفعلـه[19]». بعد هـذا القول لتشامبرليـن، يسأل المـؤرخ تيلفورد تيلور: هل خـدع هتلر فعلاً تشامبرليـن تمامـاً، أم كان تشامبرلين يخدع زملاءه لكي يكسب القبول لمطالب هتلر؟[20]»، كمـا افترض تيلور، دعونـا نفترض أنّ تشامبرلين صدق هتلـر في لقائهمـا الأول في بلدة بيرشتسغادن.*

* بينما تقوم تفسيرات جميع الأطراف المشتركة في ذلك الوقت بهذا الحكم، إلا أن هناك استثناء واحد، يفيد تقرير جوزيف كينيدي إلى واشنطن بشأن لقائه مع تشامبرلين بأن جاء تشامبرلين حاملاً عدم إعجاب شديد (لهتلر) – فهو قاسٍ وطاغية ولديه نظره فاحصة... وسوف يكون بلا رحمة على الاطلاق في أهدافه وأساليبه» (تيلور، ميونخ، ص 752)

ربمـا جعلت هذه الأخطار المرتفعة هتلر يشعر بالخوف من الانكشاف، ولكنه لم يفعل. وكانت ضحيتة مستعدة لقبول الخدعة، وعرف أنّ تشامبرلين إنْ اكتشف أنه يكذب، فسيدرك أنّ سياستـه كلّها في استرضاء هتلر قـد فشلت. في ذلك الوقت، لم تكن سياسة الاسترضاء سياسـة وضيعة، بل محطّ إعجاب، ولكنّ النظرة إلى هذه السياسة تغيرت بعد بضعة أسابيع عندمـا أوضح هجوم هتلر المفاجـئ أن تشامبرلين خُدِع؛ وقُضي الأمـر. كان هتلر مصمِّماً علـى احتـلال أوروبا بالقوة. ولو أمكن الوثوق بهتلر، ولو أنه التـزم باتفاقياته، فربما استمتع تشامبرليـن بثنـاء العالم عليه؛ لأنه أنقذ أوروبا من نشوب الحـرب. أنا مدين لكتاب تيلفورد (ميونخ) (انظر الملاحظات) للمعلومات عن تشامبرلين وهتلر، علاوة على أنني ممتن للسيد تيلور لتحققه من دقة تفسيري للمادة واستخدامها.

أراد تشامبرليـن تصديـق هتلر، وعلم هتلر بذلك. والعامل الآخـر الذي قلّل من خوفه من الانكشاف هو معرفة هتلر تماماً متى يحتاج إلى الكذب، وما الذي عليه قوله؛ لذا، يمكنه الإعداد والتدرب على ما سيقوله. زِدْ على ذلك أنّه لم يكن لدى هتلر سبب للشعور بالذنب أو الخـزي من خدعته؛ فقد كان يرى أنّ خداع البريطانييـن عمل شريف، وهذا ما عليه القيام بـه بصفته زعيماً، وأنّ هـذا ينسجم مع تصوره للتاريخ. فليس الزعيم المحتقر مثل هتلر هو الـذي مـن شأنه الشعور بالخزي أو الذنب بشأن الكـذب على خصومه. ومن وجهة نظر كثير من المحللين السياسيين، أنه يمكن توقع الأكاذيب في العلاقات الدولية، ويكون مشكوكاً فيها عندما لا تخدم المصلحة الوطنية فقط، والعاطفة الوحيدة التي ربما يكون هتلر قد شعر بها هـي لذة الخداع؛ فقد عُلِمَ أنّ هتلـر يستمتع بقدرته على تضليل الإنجليز، وربما يكون حضور أشخاص ألمان آخرين يراقبون نجاح خدعته قد ضخّم هذه اللذّة لدى هتلر الذي كان كاذباً ماهراً، وقد منع حصول أيّ تسرب لهذه المشاعر.

عندما لا يتشارك كلّ من الكاذب وضحيته الثقافة ذاتها، ولا اللغة نفسها، يصبح كشف الخداع لعدد من الأسباب أكثر صعوبة.* حتى لو اقترف هتلر الأخطاء، ولو لم يكن تشامبرلين

* لاحظ جروث هذه المشكلة على الرغم من عدم إمكانيته تفسير كيف تحدث أو لم تحدث: «.... من المحتمل أن تكون الانطباعات الشخصية (للزعماء) مضللة للمعظم جزئياً لازدياد الفجوة السياسية والأيديولوجية والاجتماعية والثقافية.» (جروث، «النواحي الاستخباراتية» صفحة 848؛ انظر الملاحظات).

obeikandl.com

ضحيــة مستعــدة، فســوف يجد صعوبة فــي معرفة هذه الأخطــاء، ويعود أحــد الأسباب إلى أنّ محادثاتهمــا تمــت من خلال مترجمين، وهــذا يقدم ميزتين للــكاذب مقارنة بالمحادثة المباشــرة. فإذا ارتكــب أيّ أخطاء لفظيّة، كالزلات والوقفات الطويلــة، أو أخطاء الحديث، فإنّ المترجم يستطيع التغطية عليها.

أضف إلى هذا أنّ عملية الترجمة الفورية تسمح للمتحدث بالوقت بعد ترجمة كلّ عبارة للتفكيــر بصياغة العبــارة اللاحقة من الكذبة صياغة متقنة. وحتى لو كان المتلقّي يفهم لغة الــكاذب ولم تكن لغته الأصلية، فمن المرجح أن تغيــب عنه الدقائق في التوصيل والصياغة التي يمكن أن تكون قرائن خداع.

قــد تخفي فــروق الخلفية الوطنية والثقافية تفسير قرائــن الصوت، والوجه، والجسم، علــى الخداع ولكن بطرق أكثر تعقيــداً. إنّ لكلّ ثقافة أنماطها الخاصة المحددة التي تحكم، إلــى حدّ ما، ارتفــاع الحديث، ومعدله، ولهجتــه، وكذلك استخدام اليديــن والوجه لتوضيح الكلام. وكما وصفت في الفصل الخامس، فإنّ علامات العاطفة في الوجه والصوت محكومة أيضــاً بقواعــد العرض التــي تملي إدارة التعبيــر العاطفي، وهذه أيضاً تتنــوع بتنوع الثقافة. فــإذا كان مكتشف الكــذب ليس على علم بهذه الاختلافات، ولــم يأخذها بالحسبان بصورة واضحــة، فإنه سيكون عرضة لإساءة تفسير هــذه السلوكات جميعها، وارتكاب خطأ؛ تكذيب الصادق وتصديق الكاذب.

فــي هذه المرحلة، قــد يسأل مسؤول فــي المخابرات: كم من تحليلاتــي للقاءات هتلر وتشامبرلين كان من الممكن إجراؤها في ذلك الوقت؟ وإذا كان ذلك ممكناً، وبعد سنوات عدّة عندما تظهر الحقائق التي لم تكن متوافرة في ذلك الحين، فلن يكون التحقق من الكذب ذا فائدة عملية للممثلين الرئيسين، أو مستشاريهم عندما يريدون مساعدة من هذا القبيل. إنّ قراءتي للتفسيرات في ذلك الوقت تشير إلى أنّ كثيراً من الأحكام التي أدليت بها واضحة في الأقــل لدى بعضهم. في عام 1938م، وكانت العواقب لتشامبرلين مرتفعة في رغبته تصديق هتلــر وآخريــن، وكان ينبغي أن يكون حذراً فــي الوثوق بأحكامه لتصديــق هتلر. وقد ورد أنّ تشامبرلين شعر بالتفوق على زملائه السياسيين وكان يتعالى عليهم[21]، وربما لم يكن ليتقبل هذه التحذيرات. لقد كان استعداد هتلر للكذب على إنجلترا راسخاً في لقاء بيرشتسغادن.

ولـم يكـن تشامبرليـن ملزماً بقـراءة أو تصديق مـا ذكره هتلـر في سيرتـه الذّاتية؛ (كفاحي). لقد كان هناك كثير من الأمثلة، مثل انتهاكاته للاتفاقية الأنجلو ألمانية البحرية، أو أكاذيبـه بشـأن نيّاته تجاه النمسا، وقبل أن يلتقي تشامبرلين بهتلر، أعرب عن شكوكه في أنّ هتلـر يكذب بشأن تشيكوسلوفاكيا، ويخفي خطة لاحتـلال أوروبا[22]» وقد عُرف عن هتلر أيضاً أنه كذوب. ليس فقط من خلال التّحايل السّياسيّ والعسكريّ، ولكن أيضاً عند مواجهته لضحيتـه، وكان يستطيع تحويل نفسـه إلى شخص غاضب أو ساحر، ويستطيع ببراعة كبيرة التأثير في الآخرين أو تهديدهم، وكبت أو تزييف المشاعر والخطط.

يستطيـع خبراء العلـوم السياسية والتاريخ الذين تخصصوا فـي العلاقات الإنجليزية الألمانيـة فـي عام 1938 الحكـم إذا كنت مصيباً فـي أنّ المعروف كان كافيـاً للإجابة عن الأسئلـة في قائمة التحقـق من الأكاذيب (انظـر الملحق). لا أعتقد أنّ بإمـكان التحقق من الكذب في ذلك الوقت التنبوء بكذب هتلر على وجه اليقين، ولكن ربما قد يتنبأ باحتمال عدم تمكـن تشامبرلين من الإمساك بهتلر إذا كذب. هناك دروس أخرى عن الكذب يمكن تعلّمها مـن لقاء هتلر وتشامبرلين، ولكـن بحثها يكون أفضل بعد دراسة مثال آخر، عندما يمكن أن تُكتشف كذبة الزعيم من القرائن السلوكية على الخداع.

في أثناء أزمة الصواريخ الكوبية، وقبل يومين من لقاء الرئيس جون ف. كينيدي ووزير الخارجيـة السوفيتي أندريه غروميكو،* يوم الثلاثاء الموافق الرّابع عشر من تشرين أول من عـام 1962، أُبلغ الرئيس كينيدي من قبل ماك جـورج بوندي أنّ استطلاع طائرة U–2 فوق كوبـا حملت أدلة دامغة علـى أنّ الاتحاد السوفييتي كان يضع صواريخ في كوبا، وكانت هناك شائعـات متكررة حول ذلـك الموضوع. وباقتراب موعد الانتخابات فـي تشرين الثاني، «أكد خروتشوف (على حدّ تعبير العالم السياسي جراهام أليسون) للرئيس عبر القنوات المباشرة والشخصيـة أنـه يتفهّم مشكلة كينيـدي الداخلية، ولن يقوم بأيّ فعـل لتعقيدها، وخصوصاً إعطـاء خروشوف للرئيس تأكيدات رسميـة أنّ الاتحاد السوفييتي لن يضع صواريخ هجومية في كوبا[23]». اشتاط كينيدي غضباً (هذا ما ذكره آرثر شليزنجر)[24] على الرغم من غضبه

* أنا ممتن لفراهام أليسون لتحققه من دقة تفسيري للقاء بين كينيدي وغروميكو، كما تحقق أيضاً من تفسيري، وقد كان عضواً في إدارة كينيدي في ذلك الوقت، وكان على اتصال ودي مع جميع الأعضاء الأساسيين المشتركين بالحدث.

مـن جهود خروشوف لخداعه، فقد تقبّل الخبر بهـدوء وبتعبير ينمّ عن المفاجأة (تفسيرات ثيـودور سورنسون)[25]. وكما قـال روبرت كينيدي: «... عندما فسّـر ممثل وكالة المخابرات المركزيـة الصور التـي التقطتها طائرة U–2 في ذلـك الصباح... أدركنـا أنّ الوعود كلّها كاذبـة، كذبة كبيـرة منسوجة من أكاذيب عـدّة[26]». بدأت لقاءات كبـار مستشاري الرئيس فـي ذلك اليوم للتفكير فـي الإجراءات التي على الحكومة اتخاذهـا، وقرر الرئيس أنه يجب ألّا يكـون هنـاك كشف لمعرفتنا عن وجود الصواريخ في كوبا إلـى أن يُتّفق على إجراء معين والاستعداد له... كانت السّرّيّة ضرورية، وأوضح الرئيس أنه قد قرّر، ولمرة واحدة في تاريخ واشنطـن، ضرورة عـدم الإفصاح بتاتاً (روجـر هيلسمان الذي كان يعمل آنـذاك في وزارة الخارجية)[27].

بعد ذلك بيومين؛ أي يوم الخميس الموافق السّادس والعشرين من تشرين أول، وعندما كان مستشارو الرئيس يناقشون الإجراء الذي عليهم اتخاذه، رأى الرئيس كينيدي غروميكو. الـذي في الولايات المتحدة لأكثر من أسبوع، ولم يعـرف أيّ مسؤول أمريكي سبب بقائه...، وقـد طلب الحضور إلى البيت الأبيض، وجاء الطلب في الوقت نفسه الذي التقطت به طائرة U–2 الصـور. فهـل رغب بالحديث مع كينيدي لمعرفة ردّة فعلـه؟ أم هل سيقوم باستخدام هـذه المحادثة لإخبار واشنطـن أنّ خروشوف كان في هذه اللحظـة سيعلن عن الصواريخ، ويكشف عن انقلابه قبل أن تتمكن الولايات المتحدة من فعل شيء ما؟[28]».

كان كينيدي يتطلع إلى موعد اللقاء، ولكنه تمكّن من التبسم، ورحّب بغروميكو وأناتولي دوبرينيـن (السفير الروسـي) في مكتبه (بحسب سورنسـون)[29]. ولأنّهم غير مستعدين بعد لاتخـاذ إجـراء مـا، اعتقد كينيـدي أنّ من المهـم إخفاء مـا اكتشفه بشـأن الصواريخ عن غروميكو؛ لتجنب إعطاء الروس ميزة أخرى.*

بـدأ الاجتماع الساعـة الخامسة مساءً، واستمـر حتى السابعة والربـع. شاهد واستمع كلّ مـن وزير الخارجية دين رسك، ولويليـن تومسون (السفير السابق للولايات المتحدة لدى الاتحاد السوفييتي)، ومارتن هيلدبراند من جانب الولايات المتحدة، في حين، كان في الجهة

* تختلف عدة تفسيرات حول هذه النقطة، فيما يفيد سورنسون أن كينيدي لم تكن لديه شكوك حيال الحاجة لخداع غروميكو، تفيد إيلي هابيل (أزمة الصواريخ، صفحة 63، أنظر الملاحظات) أن ذلك تبعه سؤال كينيدي لراسك وتومسون ما إذا كان قد ارتكب خطأً في عدم إخبار غروميكو الحقيقة.

openkanal.com

الأخـرى كلّ مـن دوبرينين وفلاديمير سيمينـور (نائب وزير الشـؤون الخارجية السوفييتي) ومسـؤول سوفياتـي ثالث. كما حضر المترجمـون من الجانبين. جلس كينيـدي على كرسيه المتحـرِّك مقابـل مدفأة الحائط، وإلـى يمينه غروميكو على أريكة بينـج. دخل المصورون، والتقطـوا الصور للأجيال القادمة (انظر الصورة) ثم غادروا. مال الروس إلى الخلف، وقد أسندوا ظهورهم إلى وسائد مقلمة، وبدؤوا الحديث...[30]».

بعد التحدث بإسهاب عن برلين، تحدث غروميكو أخيراً عن كوبا. وحسَب تفسير روبرت كينيـدي: قال غروميكو؛ إنه يرغب في مناشدة الولايات المتحدة والرئيس كينيدي نيابة عن رئيـس مجلـس الوزراء خروتشـوف والاتحاد السوفييتـي للتخفيف من حـدّة التوتر الموجود فيمـا يتعلق بكوبـا. استمع الرئيس كينيدي بدهشة، ولكن أيضـاً بإعجاب لجرأة غروميكو... (تحـدث الرئيـس)... بحزم، ولكن بكثير مـن ضبط النفس نظراً للاستفـزاز الحاصل[31]. وتعلـق الصحفية إيلي هابيل: منح الرئيس غروميكو فرصة واضحة لوضع الأمور في نصابها بالإشارة للتأكيدات المتكررة من خروتشوف.

من اليسار إلى اليمين: أناتولي دوبرينين، وأندريه غروميكو وجون ف. كينيدي.

ودوبرينيـن أنّ الصواريخ الموجودة في كوبا لم تكن غيـر أسلحة مضادة للطائرات... كـرّر غروميكو التأكيدات القديمة، التـي عرف الرئيس أنّها الآن أكاذيب، ولم يواجه كينيدي بالحقائـق[32]»، والتـزم كينيدي الصّمت ...ولـم يبدِ أيَّ علامة على توتّـر أو غضب» (حسَب مـا ذكره سورنسـون)[33]. كان غروميكو متهلّل الوجه (حسَب هابيـل)[34] عندما غادر البيت الأبيض.

سألـه الصحفيون عمّا دار في الاجتماع، فابتسم لهم، وكان واضحاً أنه في مزاج جيد، وقـال: «إنّ المحادثـات كانت مفيدة تمامـاً[35]»، ويذكر روبرت كينيدي: لقـد جئت بعد مدة وجيـزة مـن مغادرة غروميكو البيت الأبيض، ويمكن القـول: إنّ رئيس الولايات المتحدة كان مستـاءً مع المتحـدث باسم الاتحاد السوفيتـي[36]». في حين، قال كينيـدي: «لقد كنت أتوق لمواجهته بالأدلة التي لدينا. ووفقاً لأستاذ العلوم السياسية ديفيد ديتزر[37]. في مكتبه أمام روبرت لوفيت وماكباندي، الذي حضر وقتها، علّق كينيدي: قال غروميكو. . . في هذه القاعة قبـل مـا لا يزيد على عشر دقائق أكاذيب سافرة أكثر ممـا سمعت في وقت قصير جدّاً، وفي جميـع مـا نفاه. . . في الـدرج الأوسط في مكتبي، كانـت الصور التي التقطـت على مستوى منخفض، وكنت توّاقاً جدّاً لأبينها له[38]».

دعونا ندرس السفير دوبرينين أولاً. ربما كان الوحيد في الاجتماع الذي لم يكن يكذب. اعتقد روبرت كينيدي أنّ السوفييت كذبوا على دوبرينين لعدم ثقتهم بمهارته في الكذب، وأنه كان صادقـاً، وكان يعـرف ذلك. أي إنكار وجود أيّ صواريخ فـي كوبا في لقاءاته السابقة مع روبرت كينيدي.* وليس من غير المعتاد أن يُضلَّل السفير من قبل حكومته لمثل هذا الغرض. فعل جون كينيدي الشيء نفسه مع ستيفنسون أدلاي، فلم يُبلغه عن غزو خليج الخنازير، وكما

* يستمر النقاش عن دوبرينين «من هذا الاجتماع يعود أحد الأسئلة الدائمة عن دوبرينين. وهل عرف عن الصواريخ عندما، في الواقع، انضم إلى وزير خارجيته في محاولة خداع الرئيس؟ «لا بد وأنه قد علم»، يقول جورج و. بول، وزير الخارجية عندها: «عليه الكذب لمصلحة بلاده»، «لقد صدق الرئيس وشقيقه دوبرينين إلى حد ما»، كما يقول قاضي المحكمة العليا السابق آرثر ج. غولدبرغ: «لا يمكن التصور بأنه لا يعرف»، ولكن البعض الآخر أقل يقيناً. يقول مستشار كينيدي للأمن القومي، ماك جورج بندي: إنه خمن أن دوبرينين لا يعرف، ويتفق معه كثير من المتخصصين الأمريكيين، موضحين: إنه في ظل النظام السوفياتي كانت المعلومات عن المسائل العسكرية محفوظة بشكل وثيق وربما لم يكن دوبرينين مدركاً تماماً لطبيعة الأسلحة السوفياتية في كوبا» (Madeline G. Kalb, «The Dobrynin Factor,» New York Times Magazine, May 13, 1984, p. 63).

يشيـر أليسون: بالمثل، لم يبلـغ السفير الياباني عن بيرل هاربر، ولـم يبلغ السفير الألماني فـي موسكو عـن بربروسا (الخطة الألمانية لغـزو روسيا)[39]». وفي المـدة بين يونيو 1962، عندمـا يفترضـ أن يكون السوفييت قد قـرروا وضع الصواريخ في كوبـا، وهذا الاجتماع في منتصف أكتوبر، استخدم السوفييـت دوبرينين وجورجي بولشاكوف المسؤول الإعلامي في السفـارة السوفييتية؛ ليؤكدا مراراً لأعضاء إدارة كينيـدي (روبرت كينيدي، وبولز تشيستر، وسورنسـون) أنـه لا يجري وضع أيّ صواريخ هجومية في كوبا. لم يكن بولشاكوف ودوبرينين فـي حاجة إلى معرفـة الحقيقة، وربما في الواقع لم يعرفا، ولم يلتق خروشوف ولا غروميكو، ولا أيّ شخصـ آخر يعرف الحقيقة مباشرة، مع خصومهم حتى الرّابع عشر من أكتوبر؛ أي قبل يومين من اجتماع غروميكو وكينيدي. التقى خروشوف في موسكو السفير الأميركي فوي كوهلـر، ونفى وجود أيّ صواريخ في كوبا، وعندها فقط، خاطر السوفييت لأول مرة باحتمال اكتشاف أكاذيبهم إذا ارتكب خروتشوف أو بعد يومين غروميكو خطأ ما.

فـي الاجتماع الـذي عُقد في البيت الأبيضـ كذبتان؛ الأولى قام بهـا كينيدي والأخرى غروميكـو. قد يجد بعضـ القراء أنّ من الغريب استعمال كلمة كـذب لوصف كينيدي، وليس غروميكو فقط؛ لأنّ معظم الأشخاص لا يرغبون في وصف من يعجبهم بهذا الوصف المزري. إنّهـم يـرون الكذب شرّ محض، ولكنـي لا أوافقهم على ذلك. تناسـب تصرفات كينيدي في ذلـك الاجتماع تعريفـي لكذب الإخفاء. أخفـى الرجلان؛ كينيدي وغروميكـو، ما يعرف كلّ منهما أنه واقع؛ أي أنّ هناك صواريخ في كوبا، ويشير التحليل سبب كون كينيدي أكثر عرضة من غروميكو لتقديم دليل على الخداع.

وطالمـا أعدّ كلّ منهما عباراته مسبقاً، وكان لدى كلّ منهما الفرصة للقيام بذلك، فلا ينبغي أن تكون هناك مشكلة في إخفاء أحدهما عن الآخر المعرفة التي يشتركان فيها.

قـد يكـون كلاهما شعر بالخوف من الانكشاف؛ فالعواقب وخيمـة، لا شكّ في أنّ القلق الذي شعر به كينيدي عندما كان في استقبال غروميكو كان الخوف من الانكشاف. قد تكون الأخطـار، ومن ثـمَّ الخوف من الانكشاف، أعظـم لدى كينيدي مقارنـة بغروميكو. لم تقرر الولايات المتحدة ما يجب القيام به بعد، ولا حتى المعلومات الاستخبارية عن عدد الصواريخ فـي كوبا. ومرحلـة جاهزيتها، ومدى اكتمالها. رأى مستشـارو كينيدي ضرورة الحفاظ على

سرّيّـة مالديهم من معلومات؛ إذا عرف خروتشوف ذلك قبل أن تتصرف الولايات المتحدة، فستعيـق معرفةُ خروتشوف، من خلال التهرب والتهديـدات، الإجراءاتِ الأمريكية، وتكسبه فرصـة إعـداد الخطط المناسبة للحـدث، وحسب ما ذكره ماك جورج بنـدي: قدّم الإخفاء فرقـاً، شعرت عندها ومنذ ذلك الحيـن، أنّ الروس تظاهروا بطريقة خرقاء في أنهم أخفوا مـا كان واضحاً للعالم أجمع أنهم قاموا به في الواقع[40]. أراد الرّوس أيضاً الوقت لاستكمال بنـاء قواعد الصواريـخ، ولكن هذا لا يهم كثيـراً إذا عرف الأمريكيون عـن الصواريخ. لقد عرف السوفييت أنّ طائرات U–2 الأمريكية سرعان ما ستكتشف الصواريخ إذا لم تكن قد فعلت ذلك فعلاً.

حتـى لو لم يكن هناك أيّ اختـلاف في الأخطار، فربما يكون كينيدي قد شعر بالخوف من الانكشاف أكثر من غروميكو؛ ربما لأنه شعر بثقة أقل بشأن قدرته على الكذب. وبالتأكيد كان أقـلّ ممارسة مـن غروميكو للكذب، وربمـا يشعر غروميكو بمزيد مـن الثقة إذ اشترك مـع خروشوف في الرأي عن شخصيـة كينيدي البسيطة، والذي عُقد فـي اجتماع القمة في فيينـا قبل عام. وبصرف النظر عـن إمكانية شعور كينيدي بالخوف مـن الانكشاف مقارنة بغروميكو، يقال: إنه أيضاً حمل عبء إخفاء العواطف الأخرى.

تفيـد التفسيرات التـي نقلتها أنه خلال لقائهمـا شعر كينيدي بالدهشـة، والإعجاب، والاستيـاء. وكان يمكـن أن يخونه تسرب أيّ من تلك العواطف؛ لأنّ هـذه المشاعر تشير في ذلك السياق إلى أنّ كينيدي عرف الخدعة السوفيتية. ومن ناحية أخرى، ربما يكون غروميكو قد شعر بلذة الخداع، وهذا يتّسق مع التقارير التي أفادت أنّه كان بشوشاً عند مغادرته.

لـن تكون فرص التسرب أو قرائن الخـداع كبيرة؛ فالرجلان ماهران، وكان لكلّ منهما سماتـه الشخصيـة التي جعلتـه قادراً على إخفـاء العواطف التي يشعر بهـا. ومع ذلك، كان عـبء كينيـدي أكثر من عـبء غروميكو؛ حيث أحسّ بمشاعـر أكثر، وكان أقـلّ مهارة، وأقلّ ثقـة، بمهـارة الخداع. يمكن أن تكون الاختلافات الثقافيـة واللغوية قد أخفت قرائن الخداع لديه، لكن كان ينبغي على السفير دوبرينين أن يكون في وضع يمكّنه من اكتشافها، ولدرايته الكبيـرة بالسلـوك الأمريكي بعد سنوات عـدّة مكثها في هذا البلد، ومعرفتـه التامة باللغة، وامتلاكـه ميزة كونه مراقبـاً لا مشاركاً مباشراً، فإنّه قادرٌ على فحص المشتبه به. وبالمثل،

كان السفيـر تومسـون في وضع مماثل، أكثر قدرة على رصـد أيّ قرائن سلوكية على الخداع في أداء غروميكو.

استطعـت الاستفـادة من كثيـر من تفسيـرات هذا الاجتمـاع من الجانـب الأمريكي، ولكـن لا توجـد لديّ معلومات من الجانب السوفييتي. وعليـه، لا توجد طريقة لتخمين ما إذا شعـر دوبرينيـن في الواقع بالحقيقة. بعد أربعة أيام، تشيـر التقارير إلى أنّ دوبرينين صعق وانتفض بوضوح عندما أطلعه وزير الدولة راسـك على اكتشافهم الصواريخ، وبداية تفسير حصـار البحرية الأميركيـة بصفته دليلاً على أنّ السوفييت لم يعرفـوا حتى ذلك الحين ما لـدى الأمريكان من معلومات في هـذا الشأن[41]. فإذا كانت حكومته نفسها لم تعلمه بنصب الصواريخ، فسيكون هذا أول علمه بالموضوع.

حتى لو علم دوبرينين عن الصواريخ، وحتى لو عرف أنّ الولايات المتحدة قد اكتشفت وجودها في كوبا، ربما كان صعق وهزّه القرار الأميركي بالرّدّ عسكريّاً. يتفق معظم المحلِّلين على أنّ السوفييت لم يتوقعوا ردّ كينيدي على نصب الصواريخ بعمل عسكريّ. الأمر لا يكمن فـي تحديد مـا إذا كان إخفـاء كينيدي قد انكشف، ولكـن لتفسير وجـود فرصة للانكشاف وإثبات ذلك، لم تكن ملاحظة قرائن الخداع مسألة سهلة. ذُكِر أنّ كينيدي شعر بعدم وجود أخطاء في أكاذيب غروميكو؛ لأنّ كينيدي عرف فعلاً الحقيقة، ولم تكن لديه حاجة إلى رصد قرائن الخداع، ويمكن أن يعجب كينيدي بامتلاكه هذه المعرفة بمهارة غروميكو.

فـي تحليل هاتيـن الخدعتين الدوليتيـن، قُلت: إنّ هتلر، وكينيـدي، وغروميكو كاذبون بالفطرة، ومبتكرون، وأذكياء في التّلفيق، ومتحدثون على نحو سلس بطريقة مقنعة. وأعتقد أنّ أيّ سياسـي يأتـي إلى السلطة من خلال مهارته في النقاش والخطب العامة، وحذقه في التعامـل مع الأسئلة التي توجّه فـي المؤتمرات الصحفية، بصورة تلفازيـة أو إذاعية لامعة، ولديـه مواهـب التخاطـب، سيكون كاذبـاً بالفطـرة. لم يصـل غروميكو إلـى السلطة بهذه الوسائـل، ولكنّـه على مدى زمن طويل جدّاً، وبحلول عام 1963، كان من ذوي الخبرة العالية فـي كلّ مـن الدبلوماسية وإدارة الصراعات الداخلية داخل الاتحـاد السوفييتي، ويُعدّ هؤلاء الأشخاص مقنعيـن؛ وهذا جـزء من متطلّبات منصبهـم. وسواء اختاروا الكـذب أم لا فإنّ

لديهـم القدرات اللازمة للقيام بذلك أيضاً. بالطبع هناك طرائق أخرى للسلطة السياسية. والمهارات المرتبطة بالخدع بين الأشخاص ليست ضرورية لتنظيم انقلاب.

وليـس مـن الضرورة أن يكون الزعيـم الذي يصل إلى السلطة مـن خلال الخصائص التقليديـة، بالتّوريـث أو عـن طريـق التفوق بالـذكاء علـى المنافسين المحلييـن من خلال محاولات خاصة – كاذباً بالفطرة، أو متحدثاً موهوباً.

ليسـت هناك حاجة إلى مهارة التخاطب؛ أي القدرة على إخفاء الكلمات وتزييفها عند نطقهـا بتعابيـر وإيمـاءات مناسبة، طالما لا يحتـاج الكاذب إلى مواجهة هدفـه أو التحدث معـه. يمكن خـداع المتلقّي عن طريق الكتابـة، والوسطاء، والنشـرات الصحفيّة، والأعمال العسكريـة، وهكـذا دواليـك، ويفشل أيّ شـكل من أشـكال الكذب إذا كان الـكاذب لا يملك المهارات الإستراتيجية، وغير قادر على التفكير خارج تحركاته، وتحركات ضحيته. أفترض أنّ القـادة السياسيين جميعهم يجب أن يكونوا دهاةً، ومفكرين إستراتيجيين، ولكن بعضهم فقـط يمتلك مهـارات المحادثة التي تسمح لهم بالكذب وجهاً لوجـه مع مكتشفي كذبهم في أنواع الخداع التي درسناها في هذا الكتاب.

ليـس الجميع قادرين على الكذب، أو هم على استعداد للقيام بذلك. أفترض أنّ معظم القـادة السياسييـن على استعـداد للكذب، وعلى ضحايـا معينة، في ظـروف محدّدة. حتى جيمي كارتر، الذي قاد حملة وعد فيها بعدم الكذب على الشعب الأمريكي، والذي من خلال الاعتـراف بتخيلاتـه الشهوانية فـي مقابلة مع مجلة بلاي بوي، كذب فـي وقت لاحق؛ أخفى خططه لإنقاذ الرهائن المُحتجزين في إيران بالقوة. وقد حاول المحلّلون المتخصّصون في الخـدع العسكرية تحديد القادة الأكثر استعداداً أو قدرة على الكذب، فكان أحد الاحتمالات أنهم يأتون من ثقافات تتغاضى عن الخداع[42]، ولكنّ الأدلة على وجود هذه الثقافات ضعيفة.*

* يقال: إنّ السوفيات أكثر سرية وصدقاً من الجنسيات الأخرى. ويذكر الخبير السوفياتي والتر هان أن السرية لديها تاريخ طويل وهي سمة روسية وليست سوفياتية («النوابض الرئيسة للسرية السوفياتية»، أوربس 47–719 :1964). ويقول رونالد هنغلي: إنّ الروس أسرع بالتطوع بالمعلومات عن جوانب حياتهم الخاصة، وأكثر عرضة للنطق بعبارات انفعالية في وجود الغرباء. وهذا لا يعني أنهم أكثر من ذلك أو أقل صدقاً من الجنسيات الأخرى. «يمكن أن يكونوا جافين، ومتقشفين، ومتحفظين وأكثر صمتاً أو من المناضلين الأنجلو ساكسون الأسطورة، بما أن مجال التنوع باللغة الروسية كبير كما هو الحال في علم نفس أي وطنية أخرى» (هنغلي، العقل الروسي، (نيويورك: سكريبنر، 1977)، ص 74).

وهنـاك فكرة أخـرى لم تُخْتَبَر بعد، تفيد أنّ الزعماء الأكثر استعداداً للكذب يأتون من البلـدان التي يضطلـع فيها الزعماء بدور قوي فـي القرارات العسكريـة[43]. (خاصة عندما يكون النظام متسلّطاً). لم تكن محاولة اكتشاف نمط السمات التي تميز القادة الذين يُعرف عنهـم أنهم كذبوا ناجحة، ولكن المعلومات حول هـذا العمل غير متوافرة لتقييم سبب عدم نجاحها[44].

بطريقـة أو بأخرى، لا توجد أدلة دامغة عمّـا إذا كان الزعماء السياسيون قادرين على أن يكونـوا كاذبيـن في الواقع علـى نحو غير عادي، أكثر مهارة واستعـداداً للكذب من رجال الأعمـال. وإذا كانـوا قادرين فإنّ ذلك من شأنه أن يجعل الخدع الدولية أصعب، وهذا بدوره يشيـر أيضاً إلى أهمية قيام مكتشـف الكذب بتحديد الاستثناءات لرؤسـاء الدولة البارزين الذين لا يتمتعون بمهارات معتادة ليوصفوا بالكذب.

الآن، دعونا نناقش الجانب الآخر من الأمر؛ بعض رؤساء الدول أكثر قدرة من الآخرين علـى اكتشاف الكذب. وجـدت البحوث أنّ بعض الأفراد بارعـون براعة غير عادية بوصفهم مكتشفـي كذب، ولا علاقـة لتلك القدرة بالقدرة علـى الكذب[45]. ومع الأسـف، فقد دَرَسَتْ معظم هذه البحوث الطلبة الجامعيين. ولم تدرس أيّاً من القيادين في المنظمات المختلفة. فـإذا أشارت اختبـارات هؤلاء الأشخاص إلى أنّ بعضهم ماهر فـي اكتشاف الكذب، عندها يبـرز السؤال عمّا إذا كان بالإمكان تحديـد مكتشفي الكذب البارعين من على بُعد، من غير إعطائهـم اختباراً لمعرفة ذلـك، وإذا كان بالإمكان تحديد مكتشفـي الكذب البارعين غير الاعتياديـيـن مـن نوع المعلومات التي تتوافر بوجه عام عـن الشخصيات العامة، فقد يتمكن الزعيـم السياسي الذي يفكر بالكذب من معرفـة مدى قدرة خصمه بالكشف عن أيّ تسرّب أو قرائن خداع بدقّة.

مـا ذكره أستـاذ العلوم السياسية غـروث أقنعني؛ وهو أنّ رؤساء الـدول عادة ضعيفون، وغيـر قادرين علـى اكتشاف الكذب، وأقـل حذراً، من كبـار الموظفين المهنيين فـي الدّولة، بقدرتهـم على تقييم شخصيّـات خصومهـم ومصداقيّاتهم. «كثيراً ما يفتقـر رؤساء الدول، ووزراء الخارجيـة، إلـى المهارات الأساسيـة للتفاوض، والاتصـالات، أو معرفة معلومات عن خلفية خصومهم، التي من شأنها تمكينهم من إجراء تقييمات موفقة لهم[46]». يوافق جيرفيس

علـى ذلك مشيراً إلـى أنّ رؤساء الدول قـد يبالغون في قدراتهم بوصفهـم مكتشفي كذب إذا «اعتمد صعودهم إلى السلطة جزئيّاً على القدرة المتمكنة لديهم في الحكم على الآخرين[47]»، حتـى لو كان الزعيم محقّاً في الاعتقاد أنّه بارع بصورة غير عادية كمكتشف كذب، فقد يفشل في حساب مدى صعوبة الكشف عن الكذب عندما يكون المتهم من ثقافة ولغة أخرى.

لقـد أدليت بحكم عن تشامبرلين أنّه ضحية مستعـدة للخداع، ملتزمة بتجنب الحرب إذا كان ذلـك ممكنـاً، وأنه أراد – يائسـاً – تصديق هتلر، والمبالغة فـي تقدير قدرته على قراءة شخصية هتلر. ومع ذلك، لم يكن تشامبرلين أحمقَ، ولا كان غير عالِم باحتمال كذب هتلر، ولكن كان لدى تشامبرلين دافعاً قويّاً للغاية لرغبته في تصديق هتلر؛ إنْ كَذَّبَهُ فستدقّ طبـول الحـرب على الأبـواب. إنّ مثل هذه الأخطاء فـي الأحكام التي يطلقهـا رؤساء الدول واعتقادهم غير الصحيح في قدراتهم الخاصة بوصفهم مكتشفي كذب، وفقاً لغروث، ليست غيـر اعتيادية. واستناداً إلـى شروطي، فإنّها مرجحة بصفة خاصـة كلّما ارتفعت الأخطار، وعند وقوع خطر فادح، قد يكون رئيس الدولة عرضة ليصبح ضحية مستعدة لخداع الخصم.

إليـك مثالاً آخر على الضحية المستعدة لقبول الكذب. اخترت هذه المرة للانتقام من الأمثلة الكثيرة التي قدمها غروث خصم تشامبرلين؛ ونستون تشرشل. أفاد تشرشل حقيقة.

تحـدّث ستالين في كثير من الأحيان عن (روسيا) على أنها (الاتحاد السوفييتي)، وأشار إلى الإلوهية[48]»، التي دعته يتساءل عما إذا كان ستالين يؤمن ببعض المعتقدات الدينية.* وفي حادثة أخـرى، وبعـد عودته من يالطا في عام 1945م، دافع تشرشل عـن إيمانه في تعهدات ستالين على النحـو التالـي: «أشعر أنّ كلمتهم هي ضمانتهـم، ولا أعرف أيّ حكومة أخـرى تقف وراء تعهداتها وتدعمهـا حتى لـو كانت ضدها أكثر مـن الحكومة الروسيـة[49]»، وقال أحد كتـاب سيرة تشرشل الذّاتية عنه: «بكل ما يعرفه عن ماضي الحكومة الروسية.... كان وينستون مستعداً لإعطاء ستالين

* أعجب جيمي كارتر بالمثل. استشهد كارتر من افتتاحية أول لقاء له مع الرئيس السوفياتي ليونيد بريجنيف الاستجابة الافتتاحية التي قدمت في التالي لبريجنيف: «لقد كان هناك تأخير مفرط في هذا الاجتماع، ولكن الآن بعد أن أصبحنا معاً أخيراً، يجب علينا أن نبذل أقصى تقدم. لقد كنت مندهشاً حقّاً أمس عندما قال لي الرئيس بريجنيف: «إذا لم ننجح، فلن يغفر لنا الله!»، وعلق كارتر أن «بريجنيف بدا محرجاً بعض الشيء»، وبملاحظته أشار كارتر، مثل تشرشل، هذه كإشارة إلى الألوهية على محمل الجد (كارتر، الحفاظ على الإيمان (نيويورك: كتب بانتام، 1982)، ص 248).

فائدة الشك والثقة بنيّاته، وكان من الصعب عليه القيام به خلاف الاعتقاد باستقامة من لهم تلك المنزلة الرفيعة ويتعامل معهم[50]». لم يرد ستالين بالمثل بهذا الصدد. نقل ميلوفان دجيلاس عن ستالين قوله في عام 1944م: «ربما كنت تعتقد أنّ مجرد كوننا حلفاء للإنجليز ... أننا نسينا من هم ومن هو تشرشل. فليس أشهى عندهم من خداع حلفائهم، وتشرشل من الرجال، الذين إنْ لم تراقبهم، قد يسرق كوبية (عملة روسية) من جيبك الخاص ...[51]»، قد يكون تركيز تشرشل على تدمير هتلر وحاجته إلى المساعدة من ستالين جعلته ضحية مستعدة لخداع ستالين.

لقد أعطيت مساحة أكبر للخداع بين رجال الدولة أكثر من أنواع الخداع الأخرى التي بحثتها في هذا الفصل كلّها. ليس لأنّ هذا هو المجال الأكثر مناسبة للكشف عن القرائن السلوكية في الخداع ولكن لأنه الأكثر خطورة؛ إذ يمكن أن تكون الأحكام الخائبة أكثر ضرراً؛ الخدعة فيها قاتلة.

ومع ذلك، وكما هو الحال مع الكشف عن الخداع بين المشتبه فيهم جنائيّاً، لا طائل في النقاش حول وجوب إلغاء الكشف عن الخداع من القرائن السلوكية، فلا يمكن الاستغناء عنها في أيّ دولة. فمن طبيعة الإنسان جمع مثل هذه المعلومات، على الأقل بصورة غير رسمية، من القرائن السلوكية. وكما أوضحت في مناقشة الأخطار للكشف عن الخداع في أثناء الاستجواب، ربما يكون أكثر أماناً إذا كان المشاركون ومستشاروهم على بيِّنة من إبقاء أحكامهم عن القرائن التعبيرية على الخداع في عالم الحدس والتخمين.

وكما أشرت فيما يتعلق بالكشف عن الخداع بين المشتبه فيهم جنائيّاً، وحتى لو كان من الممكن إلغاء تفسير القرائن السلوكية على الخداع في الاجتماعات الدولية، فإنني لا أعتقد أنّ ذلك سيكون مرغوباً فيه. فمن الواضح أنّ السّجلّ التاريخيّ يبيّن خدعاً دولية مَشينة جدّاً في التاريخ الحديث، فَمَنْ لا يريد لبلده أن يكون أفضل في القدرة على اكتشاف مثل هذه الأكاذيب! تكمن المشكلة في كيفية القيام بذلك من غير زيادة فرص الأحكام غير الصائبة. أخشى أنّ الثقة المفرطة لدى تشامبرلين وتشرشل في قدرتيهما على قراءة الخداع وقياس شخصية نظرائهما قد تضعف مقابل غطرسة خبير العلوم السلوكية الذي يجني رزقه بالادعاء بالقدرة على اكتشاف علامات الخداع لدى الزعماء الأجانب.

لقـد حاولت تحدّي، ولـو بصورة غير مباشـرة، الخبراء السلوكييـن العاملين لدى أيّ دولـة بوصفهم مكتشفي خـداع، مما يجعلهم أكثر إدراكاً لتعقيـد مهمتهم، ويجعل عملاءهم المرضى أكثر تشكّكاً فيهم. يجب أن يكون التحدي غير مباشر؛ لأنّ هؤلاء الخبراء، إذا كانوا موجودين فعلاً فإنّهم يعملون سرّاً،* ويقومون بالبحوث السرية في كيفية الكشف عن الخداع بين المفاوضين أو رؤساء الدول. آمل أن أجعل هؤلاء الباحثين المجهولين أكثر حذراً، وأجعل أولئك الذين يدفعون لقاء عملهم أكثر شكّاً، وأكثر دقة بالادعاءات عن فائدة مُنْتَجِهِم.

لا ينبغي أن يُساء فهمي؛ فأنا أريد رؤية هذه البحوث على أرض الواقع، وأعتقد أنّ وجودها مُلِـحٌّ، وأفهم لماذا تجري الأمم علـى الأقل بعض هذه البحوث سرّياً، وأتوقع أنّ البحوث التي تحاول التعرف إلى الكذابين الجيدين والسيئين ومكتشفي الكذب بين مختلف أنواع الأشخاص الذيـن أصبحـوا صناع قرارات وطنية سوف يثبت أنّ من المستحيـل تقريباً فعل ذلك، ولكن ينبغـي معرفة الأمـر. وبالمثل، أعتقد أنّ البحث عن الحالات التـي تشبه اجتماعات القمة أو المفاوضات خلال الأزمات، والتي يكون فيها المشاركون من ذوي المهارات العالية ومن الأمم المختلفـة، وتُعدُّ الدراسات بحيث تكون الأخطـار عالية جدّاً (وليس تجربة المختبر المعتادة علـى طلاب السنة الأولى الجامعيين)، وسـوف يجدون أنّ العائد ضئيل جدّاً، ولكن ينبغي أن يُكتشف ذلك أيضاً، وإذا كان الأمر كذلك، فيجب أن تكون النتائج غير سرّيّة ومشتركة.

لقـد بيّن هذا الفصل أنّ نجاح الخـداع من عدمه لا يعتمد على المجال، والأمر لا يعقد بفشـل الخدع جميعها بيـن الأزواج، أو نجاح خـدع الأعمال التجارية جميعهـا، أو الجنائية، أو الدوليـة. فالفشـل أو النجاح يعتمـدان على تفاصيل الكذب، والـكاذب، ومكتشف الكذب. ويصبح الأمر أكثر تعقيداً على الصعيد الدوليّ مقارنة مع ما يدور بين الأم وابنها، ولكن يعلم الوالدان أنّه ليس من السهل دائماً تجنب الخطأ.

يبيّـن الجـدول رقم 4 فـي الملحق فقـرات قائمة التحقق مـن الكـذب، وعددها ثمان وثلاثون فقرة. يساعد ما يقرب من نصف هذه الأسئلة؛ ثمانية عشر، على تحديد ما إذا كان

* على الرغم من عدم اعتراف أحد بالعمل على هذه المشكلة، إلا أن هناك بعض المراسلات مع الأشخاص الذين تستخدمهم وزارة الدفاع وبعض المكالمات الهاتفية مع وكالة الاستخبارات المركزية التي تشير إلى وجود أشخاص يدرسون قرائن الخداع في مكافحة التجسس والدبلوماسية. والدراسة الواحدة غير سرية التي رأيتها والتي مولتها وزارة الدفاع، كانت مروعة جدّاً ولم تستوفِ المعايير العلمية المعتادة.

علـى الكاذب إخفاء عواطفه أو تزييفها. قد لا يقـدم استخدام القائمة تقديراً دائماً، فقد لا يعـرف مـا يكفي للإجابة عن كثير من الأسئلة، أو قد تكـون الإجابات مختلطة، يشير بعضها إلى سهولة كشف الكذب، وصعوبة بعضها الآخر.

ولكـن ينبغي أن تكـون معرفة ذلك مفيدة. حتى عند إمكانية إجراء تقدير، فقد لا يتنبأ بالصـورة الصحيحة؛ إذ قد يخون الـكاذب طرفاً ثالثاً وليس القرائـن السلوكية، وقد يُفوَّت أكثـر قرائن الخداع وضوحاً عن طريق المصادفة. وينبغي لكلّ من الكاذب ومكتشف الكذب معرفـة هذا الاحتمـال. من الذي يستفيد أكثر من تلك المعرفة: الكاذب أم مكتشف الكذب؟ هذه هي النقطة الأولى التي ستُناقش في الفصل اللاحق.

obeikandl.com